

## صيد الخاطر

168 - - فصل : حديث ابن الجوزي عن نفسه .

تأملت أحوال الناس في حالة علو شأنهم فرأيت أكثر الخلق تبين خسارتهم حينئذ .  
فمنهم من بالغ في المعاصي من الشباب و منهم من فرط إكتساب العلم و منهم من أكثر من  
الإستمتاع باللذات .

فكلهم نادم في حاله الكبر حين فوات الإستدراك لذنوب سلفت أو قوى ضعفت أو فضيلة فاتت  
فيمضي زمان الكبر في حشرات .

فإن كانت للشيخ إفاقة من ذنوب قد سلفت قال : و أسفا على ما جنيت و إن لم يكن له  
إفاقة صار متأسفا على فوات ما كان يلتذ به .

فإما من أنفق عصر الشباب في العلم فإنه في زمن الشيخوخة يحمد جنى ما غرس و يلتذ  
بتصنيف ما جمع و لا يرى ما يفقد من لذات البدن شيئا بالإضافة إلى ما يناله من لذات العلم  
.

هذا مع و جود لذاته في الطلب الذي كان يتأمل به إدراك المطلوب .

و ربما كانت تلك الأعمال أطيب مما نيل منها كما قال الشاعر :

( اهتز عند تمني وصلها طربا ... و رب أمنية أحلى من الطفر ) .

و لقد تأملت نفسي بالإضافة إلى عشيرتي الذبين أنفقوا أعمالهم في اكتساب الدنيا و أنفقت  
زمن الصبوة و الشباب في طلب العلم فرأيتني لم يفتني مما نالوه إلا ما لو حصل لي ندمت  
عليه .

ثم تأملت حالي فإذا عيشي في الدنيا أجود من عيشهم و جاهي بين الناس أعلى من جاههم و  
ما نلته من معرفة العلم لا يقاوم .

فقال لي إبليس : و نسيت تعبك و سهرك ؟ .

فقلت له : أيها الجاهل تقطيع الأيدي لا و قع له عند رؤية يوسف و ما طالت طريق أدت إلى  
صديق : .

( جرى □ المسير إليه خيرا ... و إن ترك المطايا كالمزاد ) .

و لقد كنت في حلاوة طلبي العلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل لأجل ما أطلب و  
أرجو .

كنت زمان الصبا آخذ معي أرغفة يابسة فأخرج في طلب الحديث و أقعد على نهر عيسى فلا أقدر  
على أكلها إلا عند الماء .

فكلما أكلت لقمة شربت عليها و عين همتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم .  
فأثمر ذلك عندي أنني عرفت بكثرة سماعي لحديث الرسول صلى الله عليه و سلم و أحواله و  
آدابه و أحوال أصحابه و تابعيهم فصرت في معرفة طريقه كابن أجود .  
و أثمر ذلك عندي من المعاملة ما لا يدري بالعلم حتى أنني أذكر في زمان الصبوة و وقت  
الغلمة و العزبة قدرتي على أشياء كانت النفس تتوق إليها توقان العطشان إلى الماء الزلال  
و لم يمنعني عنها إلا ما أثمر عندي العلم من خوف الله .  
و لولا خطايا لا يخلو منها البشر لقد كنت أخاف على نفسي من العجب .  
غير أنه D صانني و علمني و أطلعني من أسرار العلم على معرفة و إظهار الخلوة به حتى  
إنه لو حضر معي معروف و بشر لرأيتهما زحمة .  
ثم عاد فغمسني في التقصير و التفريط حتى رأيت أقل الناس خيرا مني .  
و تارة يوقطني لقيام الليل و لذة مناجاته و تارة يحرمني ذلك مع سلامة بدني .  
و لولا بشارة العلم بأن هذانوع تهذيب و تأديب لخرجت إما إلى العجب عند العمل و إما إلى  
اليأس عند البطالة .  
لكن رجائي في فضله قد عادل خوفي منه .  
و قد يغلب الرجاء بقوة أسبابه لأنني رأيت أنه قد رباني منذ كنت طفلا فإن أبي مات وأنا لا  
أعقل و الأم لم تلتفت إلي فركز في طبعي حب العلم .  
و ما يوقيني على المهم فالمهم و يحملني إلى من يحملني على الأصوب حتى قوم أمري .  
و كم قد قصدني عدو فصدته عني و إذ رأيت أنه قد نصرني و بصرني و دافع عني و وهب لي قوى  
رجائي في المستقبل بما قد رأيت في الماضي .  
و لقد تاب على يدي في مجالس الذكر أكثر من مائتي ألف و أسلم على يدي أكثر من مائتي  
نفس .  
و كم سألت عين مختبر بوعظي لم تكن تسيل و يحق لمن تلمح هذا الإنعام أن يرجو التمام .  
و ربما لاحت أسباب الخوف بنظري إلى تقصيري و زللي .  
و لقد جلست يوما فرأيت حولي أكثر من عشرة آلاف ما فيهم إلا من قد رق قلبه أو دمعت عينيه  
فقلت لنفسي : كيف بك إن نجونا و هلكت : فصحت بلسان وجدي : إلهي و سيدي إن قضيت علي  
بالعذاب غدا فلا تعلمهم بعذابي صيانة لكرمك لا لأجل لئلا يقولوا عذب من دل عليه .  
إلهي قد قيل لنبيك صلى الله عليه و سلم : إقتل ابن أبي المنافق فقال : لا يتحدث الناس أن  
محمد يقتل أصحابه .  
إلهي فأحفظ حسن عقائدهم في بكرمك أن تعلمهم بعذاب الدليل عليك .  
حاشاك و الله يارب من تكدير الصافي .

( لا تبر عودا أنت ريشته ... حاشا لباني الجود أن ينقضا ) .  
( لا تعطش الزرع الذي نبتة ... بصوب إنعامك قد روضا )